اساليب البلاغة في سورة الرحمن من تفسير فتح القدير للإمام شوكاني

Method of rhetoric in Surat Al-Rahman from the interpretation of Fath Al-Qadir by Imam Shawkani

Dr. Mehmood Ahmad.Almufti
Sheikh-Ul-Hadith Jamia Islamia Mahmoodiya Lahor Swabi.
Email: mh8988418@gmail.com
Faiz Ur Rehman
PhD Research Scholar Department of Arabic, University of Peshawar
Email: muftifaizurrehmam1982@gmail.com
Farooq Ahmad
PhD Research Scholar Department of Arabic, University of Peshawar
Email: farooqahmadtt@gmail.com

Abstract
Commentry on the Holy Quran "Fath-ul-Qadeer" of Allama Shokani has agreat importante in all the Arabic commentaries (on the Holy Quran) Allama Shokani has discussed all those arts and sciences which are required to a Commentrator while commenting on the Holy Quran.I have chosen my topic from the commentary described on the skill of rhetoric in which Allama Shokani has pointed out those rhetorical hints which I want to explain and present in an easy paraghraph in front of readers. Which can be a source of success for a Muslim in both this world and also in eternity.
Keywords: Al_Quran, The skill of rhetoric, "Fath-ul-Qadeer" of Allama Shokani,Tafaseer,Surah-Ar-Rahman

يعتبر "فتح القدير" من أهم كتب التفسير, يشتمل على كثير من الفنون, والعلوم التي لابد منها لدارس القرآن الكريم, في دراسات القرآنية, ولمفسره, في تفسير الآيات القرآنية, كما هو شائع, زائع فيه من علم القراءة, والبلاغة, والصرف, والنحو, واللغة, وغيرذلك من الفنون, اخترت لموضوع البحث من بين هذه الفنون, أساليب البلاغة التي تحدث عنها الشوكاني في تفسيره لـ"سورة الرحمن" فقط وهي:

وضع المثنى موضع المفرد, والتكرار, والتغليب, و التشبيه البليغ, والتشبيه التمثيلي, وغيرها من أساليب البلاغة, في تفسير هذه السورة تحدثت عن معناها الاصطلاحي, وتطبيقها بالآية الكريمة تحت عنوان:

"اساليب البلاغة في سورة الرحمن من تفسير فتح القدير للإمام الشوكاني"

والأساليب البلاغية التي تحدث عنها الشوكاني خلال تفسير سورة الرحمن:

منها: في قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[1] "وضع المثنى موضع المفرد",كما وضح الشوكاني بقوله: ...وقيل: الخطاب للإنس، وثناه على قاعدة العرب في خطاب الواحد بلفظ التثنية كما قدمنا[2] في قوله: "ألقيا في جهنم"[3]

وقال الشوكاني:وكرر[4] سبحانه هذه الآية في هذه السورة تقريرا للنعمة وتأكيدا للتذكير بها على عادة العرب في الاتساع. قال القتبي: إن الله عدد في هذه السورة نعماءه، وذكر خلفه آلاءه، ثم أتبع كل نعمة وضعها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقررهم بها كما تقول لمن تتابع له إحسانك، وهو يكفره: ألم تكن فقيرا فأغنيتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن راجلا فحملتك؟ أفتنكر هذا؟ والتكرير حسن في مثل هذا،[5] لاختلاف ما يقرر به، وهو كثير في كلام العرب.

وقال صاحب التحرير والتنوير: وضمير المثنى في ربكما تكذبان خطاب لفريقين من المخاطبين بالقرآن. والوجه عندي أنه خطاب للمؤمنين والكافرين الذين ينقسم إليهما جنس الإنسان المذكور في قوله: " خلق الإنسان [6]" وهم المخاطبون بقوله: " ألا تطغوا في الميزان " الآية[7] والمنقسم إليهما الأنام المتقدم ذكره، أي أن نعم الله على الناس لا يجحدها كافر ولا المؤمن، وكل فريق يتوجه إليه الاستفهام بالمعنى الذي يناسب حاله. والمقصود الأصلي: التعريض بالمشركين وتوبيخهم على أن أشركوا في العبادة مع المنعم غير المنعم، والشهادة عليهم بتوحيد المؤمنين، والتكذيب مستعمل في الجحود والإنكار.

وقيل التثنية جرت على طريقة في الكلام العربي أن يخاطبوا الواحد بصيغة المثنى كقوله تعالى: " ألقيا في جهنم كل كفار عنيد [8]" ذكر ذلك الطبري والنسفي. ويجوز أن تكون التثنية قائمة مقام تكرير اللفظ لتأكيد المعنى مثل: لبيك وسعديك، ومعنى هذا أن الخطاب لواحد وهو الإنسان[9].

وقال أبو حيان:[10] وقيل للبيان والتكرار في هذه الفواصل: للتأكيد والتنبيه والتحريك، وهي موجودة في مواضع من القرآن. وقال ابن قتيبة : إن هذا التكرار إنما هو لاختلاف النعم[11]

تضمّنت هذه الآية الكريمة النكت الأربعة البلاغية : خطاب الواحد بلفظ التثنية, والتكرير, والاستفهام فيها للتقريع والتوبيخ, وفن الاتساع.

وتكرار هذه الآية في هذه السورة لطرد الغفلة وتأكيد الحجة وتذكير النعمة وتقرير الكرامة من قولهم كم نعمة كانت لكم كم كم وكم وكقولك لرجل أحسنت اليه بأنواع الأيادي وهو ينكرها ألم تكن فقيرا فأغنيتك أفتنكر هذا ألم تكن عريانا فكسوتك أفتنكر هذا ألم تكن خاملا فعززتك أفتنكر هذا.

وفن المقابلة[12] بين قوله تعالى: {والسمآء رَفَعَهَا} وبين قوله تعالى: {والأرض وَضَعَهَا}, و بين {خَلَقَ الإنسان مِن صَلْصَالٍ كالفخار} {وَخَلَقَ الجآن مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ}[13] أيضا مقابلة .

وقال صاحب الروح والريحان: وذكر سبحانه هنا في مقابلة النعمتين السماويتين اللتين هما الشمس والقمر نعمتين أرضيتين، وهما: النجم والشجر، وكلاهما من قبيل النبات الذي هو أصل الرزق من الحبوب، والثمار، والحشيش للدواب. وإخلاء الجمل الأولى عن العطف لورودها على منهاج التعداد تنبيها على تقاعده في الشكر، كما في قولك: زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل، كثرك بعد قلة، فعل بك ما لم يفعل أحد

بأحد. وأما عطف جملة " والنجم " على ما قبلها فلتناسبها من حيث التقابل لما أن الشمس والقمر علويان، والنجم والشجر سفليان، ومن حيث إن كلا من حال العلويين وحال السفليين من باب الانقياد لأمر الله تعالى. ولما كانت هذه الأربعة مغايرة لجنس الإنسان في ذاته وصفاته غير النظم بإيرادها في صورة الاسمية تحقيقا للتغاير بينهما وضعا، وطبعا، وصورة، ومعنى.

والمعنى : أي والزرع والشجر ينقادان لله سبحانه فيما أراد بهما طبعا كما ينقاد المكلف اختيارا. فما اختلاف ثمرهما في الشكل، والهيئة، واللون، والمقدار، والطعم، والرائحة إلا انقياد للقدرة التي أرادت ذلك. وقال الفراء: المراد بسجودهما: أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت، ثم يميلان معها حين ينكسر الفيء. وقال الزجاج: سجودهما دوران الظل معهما، كما في قوله تعالى: " يتفيأ ظلاله ". وقال الحسن، ومجاهد: المراد بـ" النجم ": نجم السماء، وسجوده طلوعه. ورجح ابن جرير هذا.

وقيل: سجوده أفوله، وسجود الشجر تمكينها من الاجتناء لثمارها، وهذه الجملة والتي قبلها خبران آخران لـ " الرحمن "، وترك الرابط فيهما لظهوره، كأنه قيل: الشمس والقمر بحسبانه، والنجم والشجر يسجدان له. ولما ذكر ما به حياة الأرواح من تعليم القرآن .. ذكر ما به حياة الأشباح من النبات الذي له ساق. وكان تقديم النجم، وهو ما لا ساق له؛ لأنه أصل القوت، والذي له ساق ثمره يتفكه به غالبا.[14]

وفي قوله تعالى: { سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَان}[15] هذا وعيد شديد من الله سبحانه للجن والإنس. قال الزجاج والكسائي وابن الأعرابي وأبو علي الفارسي: إن الفراغ هاهنا ليس هو الفراغ من شغل، ولكن تأويله القصد، أي: سنقصد لحسابكم.... ثم قال: سنفرغ لكم مما وعدناكم ونوصل كلا إلى ما وعدناه، وبه قال الحسن ومقاتل وابن زيد، ويكون الكلام على طريق التمثيل[16].

الملاحظة: عبر الشوكاني عن قوله تعالى: " سَنَفْرُغُ لَكُمْ " عن الاستعارة التمثيلية، اى سنتجرد لحسابكم وجزائكم وذلك يوم القيامة عند انتهاء شؤون الخلق المشار إليها بقوله تعالى كل يوم هو في شأن فلا يبقى حينئذ الشأن واحد هو الجزاء فعبر عنه بالفراغ لهم على المجاز المرسل فان الفراغ يلزمه التجرد والا فليس المراد الفراغ من الشغل لانه تعالى لا يشغله شأن عن شأن وقيل هو مستعار من قول المهدد لصاحبه سأفرغ لك اى سأتجرد للايقاع بك من كل ما يشغلني عنه والمراد التوفر على النكاية فيه والانتقام منه فالخطاب للمجرمين منهما بخلافة على الاول.

وفي قوله تعالى: {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثقلان}[17]كلام خبري سيق " للتهديد"كما وضحه الشوكاني بقوله: أي سنحاسبكم على أعمالكم يا معشر الإنس والجنّ قال ابن عباس: هذا وعيد من الله تعالى للعباد، إن الفراغ هاهنا ليس هو الفراغ من شغل، ولكن تأويله القصد، أي: سنقصد لحسابكم. قال الواحدي حاكيا عن المفسرين: إن هذا تهديد منه سبحانه لعباده.[18]

قال في البحر: أي ننظر في أموركم يوم القيامة، لا أنه تعالى كان له شغل فيفرغ فيه، وجرى هذا على كلام العرب يقول الرجل لمن يتهدده: سأفرغ لك أي سأتجرد للانتقام منك.[19]

وقال البيضاوي: أي سنتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة، وفيه تهديد مستعارٌ من قولك لمن تهدده: سأفرغ لك، فإن المتجرد للشيء يكون أقوى عليه، وأجدَّ فيه[20]

وفي قوله تعالى: { سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَان}[21] قال الإمام الشوكاني: ويدل على هذا ما قدمنا في فاتحة هذه السورة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها على الجن والإنس، وقيل: الخطاب للإنس، وثناه على قاعدة العرب في خطاب الواحد بلفظ التثنية كما قدمنا في قوله: ألقيا في جهنم[22]

لاحظ تعبير الشوكاني قال: صيغة التثنية في : الثقلان " جرت على طريقة في الكلام العربي من عادتهم أنهم يخاطبوا الواحد بصيغة المثنى كقوله تعالى: " ألقيا في جهنم كل كفار عنيد [23]" . ويجوز أن تكون التثنية قائمة مقام تكرير اللفظ لتأكيد المعنى مثل: لبيك وسعديك، ومعنى هذا أن الخطاب لواحد وهو الإنسان.

وفي قوله تعالى: { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}[24] التشبيه المرسل حيث أشار الشوكاني بقوله: والفخار: الخزف الذي طبخ بالنار، والمعنى: أنه خلق الإنسان من طين يشبه في يبسه الخزف.

وأيد هذا المعنى صاحب التحرير والتنوير في تفسيره بقوله: والفخار: الطين المطبوخ بالنار ويسمى الخزف. وظاهر كلام المفسرين أن قوله: "كالفخار " صفة ل صلصال. وصرح بذلك الكواشي في «تلخيص التبصرة» ولم يعرجوا على فائدة هذا الوصف. والذي يظهر لي أن يكون كالفخار حالا من الإنسان، أي خلقه من صلصال فصار الإنسان كالفخار في صورة خاصة وصلابة، والمعنى أنه صلصال يابس يشبه يبس الطين المطبوخ والمشبه غير المشبه به، وقد عبر عنه بالحمأ المسنون، والطين اللازب، والتراب.[25]

وأيد هذا صاحب الروح أيضا بقوله: فقال: {خلق} الله سبحانه وتعالى {الإنسان} أي: آدم. فالمراد بالإنسان هنا: آدم. قال القرطبي باتفاق من أهل التأويل: ولا يبعد أن يراد الجنس لأن بني آدم مخلوقون في ضمن خلق أبيهم آدم. {من صلصال} أي: من طين يابس له صلصلة؛ أي: صوت إذا نقر لشدة يبسه. وقيل: هو طين خلط برمل. وقيل: هو الطين المنتن. {كالفخار}؛ أي: شبيه بالخزف الذي طبخ بالنار في صوته إذا نقر، كأنه صور بصورة من يكثر التفاخر، أو لأنه أجوف. وقد خلق الله آدم عليه السلام من تراب جعله طينا، ثم حمأ مسنونا، ثم صلصالا، ثم صب عليه ماء الأحزان، فلا ترى ابن آدم إلا ويكابد حزنا. والمعنى: أنه خلق الإنسان من طين يشبه في يبسه الخزف.[26]

وفي قوله تعالى: {وخلق الجان من مارج من نار}[27] يعني خلق أبا الجن أو جنس الجن من مارج من نار، والمارج: اللهب الصافي من النار، وقيل: الخالص منها، وقيل: لسانها الذي يكون في طرفها إذا التهبت،

وقال الليث: المارج: الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد. وقال المبرد: المارج: النار المرسلة التي لا تمنع، وقال أبو عبيدة: المارج: خلط النار، من مرج إذا اختلط واضطرب. قال الجوهري: «مارج من نار» : نار لا دخان لها، خلق منها الجان.[28]

لا حظ أشار الشوكاني في هذه إلى مجاز عقلي حيث أ ن المارج: هو المختلط وهو اسم فاعل بمعنى اسم المفعول مثل دافق، وعيشة راضية، أي خلق الجان من خليط من النار، أي مختلط بعناصر أخرى إلا أن الناس أغلب عليه كما كان التراب أغلب على تكوين الإنسان مع ما فيه من عنصر النار وهو الحرارة الغريزية.

وفي قوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ، وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ}[29] فن المقابلة بين الآيتين المذكورتين.

وفي قوله تعالى: { رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ.....مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ}[30] قرأ الجمهور: «رب» بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو رب المشرقين والمغربين، وقيل: مبتدأ وخبره مرج البحرين وما بينهما اعتراض، والأول أولى، والمراد بالمشرقين مشرقا الشتاء والصيف، وبالمغربين مغرباهما[31]

وضح الشوكاني أن بين الآيتين الكريمتين "جملة معترضة " قال " رب المشرقين " مبتدأ و وخبره مرج البحرين وبينهما جملة معترضة.

وأيد هذا المعنى صاحب حدائق الروح: وقيل: مبتدأ، خبره {مرج البحرين}، وما بينهما اعتراض.[32]

وفي قوله تعالى: {يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}[33] كل يوم هو في شأن انتصاب "كل " بالاستقرار الذي تضمنه الخبر، والتقدير: استقر سبحانه في شأنه كل وقت من الأوقات، واليوم عبارة عن الوقت، والشأن هو الأمر، ومن جملة شؤونه سبحانه إعطاء أهل السماوات والأرض ما يطلبونه منه على اختلاف حاجاتهم وتباين أغراضهم. قال المفسرون: من شأنه أنه يحيي ويميت، ويرزق ويفقر، ويعز ويذل، ويمرض ويشفي، ويعطي ويمنع، ويغفر ويعاقب، إلى غير ذلك مما لا يحصى. [34]

أشار الشوكاني أن الكلام بتقدير العبارة أي استقر سبحانه في شأنه كل وقت من الأوقات.

ووافقه صاحب حدائق الروح والريحان على هذا المعنى فقال: وانتصاب كلمة "كل " بالاستقرار الذي تضمنه الخبر، والتقدير: استقر سبحانه في شأنه كل وقت من الأوقات.[35]

ووافقه صاحب التحرير والتنوير أيضا على هذا المعنى كما قال: كل يوم هو في شأن.

يجوز أن تكون الجملة حالا من ضمير النصب في يسئله أو تذييلا لجملة يسئله من في السماوات والأرض، أي كل يوم هو في شأن من الشؤون للسائلين وغيرهم فهو تعالى يبرم شؤونا مختلفة من أحوال الموجودات دواما، ويكون كل يوم ظرفا متعلقا بالاستقرار في قوله: هو في شأن، وقدم على ما فيه متعلقه للاهتمام

بإفادة تكرر ذلك ودوامه. والمعنى: في شأن من شؤون من في السماوات والأرض من استجابة سؤل، ومن زيادة، ومن حرمان، ومن تأخير الاستجابة، ومن تعويض عن المسئول بثواب، كما ورد في أحاديث الدعاء أن استجابته تكون مختلفة.... ويوم مستعمل مجازا في الوقت بعلاقة الإطلاق، إذ المعنى: كل وقت من الأوقات ولو لحظة، وليس المراد باليوم الوقت الخاص الذي يمتد من الفجر إلى الغروب.

وإطلاق اليوم ونحوه على مطلق الزمان كثير في كلام العرب كقولهم: الدهر يومان يوم نعم ويوم بؤس.[36]

وفي قوله تعالى: {يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَام}[37] هذه الجملة جارية مجرى التعليل لعدم السؤال. السيما: العلامة. قال الحسن: سيماهم: سواد الوجوه وزرقة الأعين،[38]

قال الشوكان هذه الجملة بيان وتعليل لجملة ما قبلها " لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان "

ووافقه على هذا صاحب التحرير والتنوير حيث قال: هذا استئناف بياني ناشيء عن قوله: فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان [الرحمن: 39] ، أي يستغنى عن سؤالهم بظهور علاماتهم للملائكة ويعرفونهم بسيماهم فيؤخذون أخذ عقاب ويساقون إلى الجزاء. والسيما: العلامة. وتقدمت في قوله تعالى: تعرفهم بسيماهم في آخر سورة البقرة [273] . و (ال) في بالنواصي والأقدام عوض عن المضاف إليه، أي بنواصيهم وأقدامهم وهو استعمال كثير في القرآن.[39]

وفي قوله تعالى: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ}[40] تشاهدونها وتنظرون إليها، مع أنكم كنتم تكذبون بها وتقولون إنها لا تكون، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا يقال لهم عند الأخذ بالنواصي والأقدام؟ فقيل: يقال لهم: هذه جهنم، تقريعا لهم وتوبيخا يطوفون بينها أي: بين جهنم فتحرقهم وبين حميم آن فتصب على وجوههم، والحميم: الماء الحار، والآن: الذي قد انتهى حره وبلغ غايته.[41]

قال الشوكاني هذه الجملة مستانفة خبرية وفائدته التوبيخ والتقريع.

ويقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ: {هذه} النار التي تلقون فيها الآن {جهنم التي يكذب بها المجرمون}؛ أي: جهنم التي كنتم تكذبون بها في الدنيا، فها أنتم الآن قد شاهدتموها، ورأيتموها رأي العين. فذوقوا عذابها، وهذه الجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا يقال لهم عند الأخذ بالنواصي والأقدام؟ فقيل: يقال لهم: هذه جهنم تقريعا لهم، وتوبيخا.[42]

وفي قوله تعالى: { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَان... ذَوَاتَا أَفْنَانٍ}[43] هذه صفة للجنتين، وما بينهما اعتراض، والأفنان: الأغصان، واحدها فنن، وهو الغصن المستقيم طولا، وبهذا قال مجاهد وعكرمة وعطية وغيرهم. وقال الزجاج: الأفنان: الألوان، واحدها فن، وهو الضرب من كل شيء، وبه قال عطاء وسعيد بن جبير،

وجمع عطاء بين القولين، فقال: في كل غصن فنون من الفاكهة، ومن إطلاق الفنن على الغصن قول النابغة:

دعاء حمامة تدعو هديلا ... مفجعة على فنن تغني [44]

قال الشوكاني: أن ذواتا أفنان صفة لـ " جنتان " والجملة بينهما معترضة.

وفي قوله تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ}[45] "تغليب"[46], حيث أشار الشوكاني إليه بقوله: أي: كل من على الأرض من الحيوانات هالك، وغلّب العقلاء على غيرهم، فعبر عن الجميع بلفظ "من" وقيل: أراد من عليها من الجن والإنس.[47]

وأشار صاحب روح البيان إلى هذا المعنى بقوله: والمعنى كل من على الأرض من الحيوانات والمركبات و " من " للتغليب على الوجهين او من الثقلين " فان " أي هالك لا محالة[48]

وقال هكذا صاحب التحرير والتنوير: والمراد بـ " من عليها " الناس لأنهم المقصود بهذه العبر، ولذلك جيء بـ " من " الموصولة الخاصة بالعقلاء.[49]

و في قوله تعالى: {يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان}[50] "الأمر للتعجيز"[51],كما ذكره الشوكاني بقوله: أي: لا تقدرون على النفوذ إلا بقوة وقهر، ولا قوة لكم على ذلك ولا قدرة، والسّلطان: القوّة الّتي يتسلّط بها صاحبها على الْأمر، والْأمر بالنّفوذ أمر تعجيز.[52]

وضّح الشوكاني : أن الأمر ههنا للتعجيز, لاللطلب, والعلاقة بين الطلب والتعجيز ما بينها من شبه التضاد في متعلقة ما فإن التعجيز في المستحيلات والطلب في الممكنات, وتستعمل صيغة الأمر للتعجيز في مقام إظهار عجز من يدعي أن في وسعه أن يفعل ما يعجز عن فعله.

وأكد هذا المعنى صاحب المحاسن بقوله: أي تجوزوا أطراف السماوات والأرض فتعجزوا ربكم، أي بخروجكم عن قهره ومحل سلطانه ومملكته حتى لا يقدر عليكم " فَانْفُذُوا " أي فجوزوا واخرجوا " لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ " أي بقوة وقهر وغلبة، وأنّى لكم ذلك ونحوه " وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ "[53] ، ويقال: معنى الآية: إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات والأرض فاعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان، يعني البينة من الله تعالى. والأول أظهر، لأنه لما ذكر في الآية الأولى أنه لا محالة مجاز للعباد، عقبه بقوله: إِنِ اسْتَطَعْتُمْ ... إلخ، لبيان أنهم لا يقدرون على الخلاص من جزائه وعقابه، إذا أراده.[54]

وفي قوله تعالى: {فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان}[55] "تشبيهان", كما قال الشوكاني: أي: كوردة حمراء. قال سعيد بن جبير وقتادة:المعنى: فكانت حمراء، وقيل: فكانت كلون الفرس الورد، وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة أو الصفرة. قال الفراء وأبو عبيدة: تصير السماء كالأديم لشدة حر

النار.وقال الفرّاء أيضا: شبّه تلوّن السّماء بتلوّن الورد من الخيل، وشبّه الورد في ألوانها بالدّهن واختلاف ألوانه.[56]

شبه سبحانه وتعالى السماء بالدهان، وهو الدهن، للينها وضعفها، وهو قد ذكر في آية أخرى: " يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ "، والمهل: هو دردي الزيت، لكن التشبيه بالمهل إنما يكون، لكثرة التلون لا للين، فيكون في هذا التأويل نوع وهاء، والله أعلم.

قال صاحب اللباب: وقوله: " فكانت وردة " أي: مثل وردة، فقيل: هي الزهرة المعروفة التي تشم شبهها بها في الحمرة.

وأنشد قول الشاعر:

فلو كنت وردا لونه لعشقتني ... ولكن ربي شانني بسواديا

وقيل: هي من لون الفرس الورد يكون في الربيع إلى الصفرة، وفي الشتاء إلى الحمرة، وفي شدة البرد إلى الغبرة، فشبه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل، وقرأ عمرو بن عبيد: " وردة " بالرفع، قال الزمخشري: فحصلت سماء وردة، وهو من الكلام الذي يسمى التجريد؛ كقوله:

فلئن بقيت لأرحلن بغزوة ... تحوي الغنائم أو يموت كريم

وقوله: «كالدهان» يجوز أن يكون خبرا ثانيا، وأن يكون نعتا ل «وردة» ، وأن يكون حالا من اسم «كانت» .

وفي «الدهان» قولان: أنه جمع «دهن» نحو: قرط وقراط، ورمح ورماح، وهو في معنى قوله تعالى: " تكون السمآء كالمهل "[57] وهو: دردي الزيت، والثاني: أنه اسم مفرد، فقال الزمخشري: " اسم ما يدهن به كالحزام والإدام " وأنشد:

كأنهما مزادتا متعجل ... فريان لما تدهنا بدهان،

وقال غيره: هو الأديم الأحمر؛ وأنشد للأعشى:

وأجرد من كرام النخل طرف ... كأن على شواكله دهانا

أي: أديما أحمر، وهذا يحتمل أن يكون جمعا، ويؤيده ما أنشده منذر بن سعيد:

تبعن الدهان الحمر كل عشية ... بموسم بدر أو بسوق عكاظ

فقوله: «الحمر» يحتمل أن يكون جمعا، وقد يقال: هو كقولهم: أهلك الناس الدينار الحمر والدرهم البيض، إلا أنه خلاف الأصل، وقيل: شبهت بالدهان وهو الزيت لذوبها ودورانها، وقيل: لبريقها.[58]

معنى الآية الكريمة: وباعتبار التشبيه يكون معنى الْآية: أَن السَّمَاء يخْتَلف لَوْنهَا يَوْم الْقِيَامَة كاختلاف لون الْوَرْد، وَاخْتِلَاف لون الدّهن أوفي الذوبان.

لا حظ أشار الشوكاني في الآية إلى تشبيهين كليمها: التشبيه البليغ[59]: في قوله : "وردة" أي: كوردة حمراء, والتشبيه التمثيلي[60]: في قوله: كالدهان, شبّه تلوّن السّماء بتلوّن الورد إلخ, حيث شبه لون السماء، وقت انشقاقها، بالوردة , وشبّه الوردة لألوانها المختلفة بالدهن لاختلاف ألوانه أيضا. و هو من قبيل تشبيه المحسوس بالمحسوس لأن المشبه والمشبه به كلاهما حسيان.

الملاحظة الأخرى: حيث أراد بالوردة الغرس، والوردة تكون في الربيع أميل إلى الصفرة، فإذا اشتد البرد كانت وردة حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وردة أميل إلى الغبراء، فشبه تلون السماء، حال انشقاقها، بالوردة وشبّهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه. والمشبه والمشبه به كلاهما حسي، أي من قبيل تشبيه المحسوس بالمحسوس.

وأكد هذا الفن البياني البلاغي صاحب إعراب القرآن محي الدين الدرويش قال: وفي قوله تعالى " فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان " تشبيه تمثيلي، أراد بالوردة الغرس، والوردة تكون في الربيع أميل إلى الصفرة فإذا اشتد البرد كانت وردة حمراء فإذا كان بعد ذلك كانت وردة أميل إلى الغبراء فشبّه تلوّن السماء حال انشقاقها بالوردة وشبّهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه.

فالتشبيه تمثيلي كما ترى مركب من قسمين أو صورتين متعاقبتين صورة السماء منشقة وصورة الوردة ثم صورة الدهان والصورتان الأخيرتان لتوضيع وجه الشبه وهو أحوال تلونها فهي في الربيع صفراء وفي الشتاء حمراء ثم غبراء داكنة عند الذبول وهذا التلوّن التدريجي من اللون الناصع إلى اللون الداكن يشبه أيضا لون الدهن وقد عملت فيه النار فاشتعل بلون أصفر ثم بدت ألسنته محمرّة إذ آذن بالانطفاء ثم يتحوّل إلى رماد داكن، وقال الملحدون: ما وجه الشبه في " فكانت وردة كالدّهان ".[61]

وفي قوله تعالى:{كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ}[62] " تشبيه مرسل مجمل" , لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه ,كما وضّحه الشوكاني بقوله: هذا صفة لقاصرات، أو حال منهنّ، شبّههنّ سبحانه في صفاء اللّون مع حمرته بالياقوت والمرجان،[63]

لاحظ كيف شبههن سبحانه وتعالى بالياقوت في صفاء لونهن والمرجان في حمرة لونهن, وقال قتادة: كأنهن في صفاء الياقوت وحمرة المرجان،[64] أو شبههن في حمرة وجههن بالياقوت, وفي بيا ض بشرتهن وصفائها بالمرجان أي:صغار الدر.

وقال محي الدين الدرويش: و في قوله «كأنهنّ الياقوت والمرجان» تشبيه مرسل مجمل لوجود الأداة، أما وجه الشبه فهو الصفاء.[65]

وقال صاحب التحرير والتنوير: وجملة كأنهن الياقوت والمرجان نعت أو حال من قاصرات الطرف.

ووجه الشبه بالياقوت والمرجان في لون الحمرة المحمودة، أي حمرة الخدود كما يشبه الخد بالورد، ويطلق الأحمر على الأبيض فمنه حديث " بعثت إلى الأحمر والأسود " وقال عبد بني الحساس[66]:

فلو كنت وردا لونه لعشقتني ... ولكن ربي شانني بسواديا

ويجوز أن يكون التشبيه بهما في الصفاء واللمعان.[67]

الملاحظة: في الآية تشبيه مرسل مجمل حيث شبههن بالياقوت، في حمرة الوجه، وبالمرجان أي صغار الدر، في بياض البشرة وصفائها، وتخصيص الصغار لأنه أنصع بياضا من الكبار.

وفي قوله تعالى {وَلَهُ الجوار المنشئات فِي البحر كالأعلام}[68] "تشبيه مرسل مجمل", وهي الجبال، والعلم: الجبل الطويل.[69] شبه سبحانه وتعالى السفن بالجبال الطويلة في الضخامة, والعظم. لأن كل جبل إذا طال فهو علم. وقال القرطبي: فالسفن في البحر كالجبال في البر[70]

وأكد هذا المعنى صاحب روح البيان بقوله: الْمُنْشَآتُ المرفوعات الشرع على أن يكون من أنشأه إذا رفعه والشرع بضمتين جمع شراع وهو الذي يسمى بالفارسية بادبان ولا يبعد أن يكون المنشأت بمعنى المرفوعات على الماء فتكون جارية على ما هى له كما في حاشية سعدى المفتى والمعنى المنشأت المصنوعات اى المخلوقات على أن يكون من أنشأه الله اى خلقه فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ جمع علم وهو الجبل الطويل اى كالجبال الشاهقة عظما وارتفاعا وهو حال من ضمير المنشأت والسفن فى البحر كالجبال في البر كما ان الإبل في البر كالسفن في البحر.[71]

وقال محي الدين الدرويش: وفي قوله «وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام» تشبيه مرسل فقد شبّه السفن وهي تمخر عباب البحر رائحة جائية بالجبال، وقد استهوى هذا التشبيه الشعراء فاقتبسوه قال ابن الرومي[72]:

أين فلك فيها وفلك إليها ... منشآت في البحر كالأعلام[73]

وقال أيد هذا أبو الليث السمرقندي: ثم قال عز وجل: وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ يعني: السفن التي تجري في الماء كَالْأَعْلامِ يعني: كالجبال فشبّه السفن في البحر بالجبال في البر. وقرأ حمزة المنشئات بكسر الشين. والباقون: بالنصب. فمن قرأ: بالكسر يعني: المبتدئات في السير.[74]

وفي قوله تعالى: {وَجَنَى الجنتين دان}[75]"جناس الناقص", ويسمى الاشتقاق[76], لتغير الشكل والحروف، وإن لم تعرض إليه الشوكاني, وفسّره بقوله: مبتدأ وخبر، والجنى:ما يجتنى من الثمار، قيل: إن الشجرة تدنو حتى يجنيها من يريد جناها.[77]

وفي قوله تعالى: {فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان}[78] "سؤال توبيخ وتقريع" ,كما قال الشوكاني: فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان أي: يوم تنشق السماء لا يسأل أحد من الإنس ولا من الجن عن

ذنبه، لأنهم يعرفون بسيماهم عند خروجهم من قبورهم، والجمع بين هذه الآية وبين مثل قوله: فو ربك لنسئلنهم أجمعين أن ما هنا يكون في موقف والسؤال في موقف آخر من مواقف القيامة. وقيل: إنهم لا يسألون هنا سؤال استفهام عن ذنوبهم، لأن الله سبحانه قد أحصى الأعمال وحفظها على العباد، ولكن يسألون سؤال توبيخ وتقريع،[79]

أشار الشوكان أن الاستفهام ههنا لا للسوال والاستفهام ليس بمعناه الحقيقي بل يكون بمعنى توبيخ وتقريع. ووافقه على هذا صاحب التحرير حيث قال: وجملة فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إلخ جواب شرط (إذا) . واقترن بالفاء لأنها صدرت باسم زمان وهو فيومئذ وذلك لا يصلح لدخول (إذا) عليه، ومعنى لا يسئل عن ذنبه: نفي السؤال الذي يريد به السائل معرفة حصول الأمر المتردد فيه، وهذا مثل قوله تعالى: ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون [القصص: 78] . وليس هو الذي في قوله تعالى: فو ربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون [الحجر:92، 93] وقوله: وقفوهم إنهم مسؤلون [الصافات: 24] ، فإن ذلك للتقرير والتوبيخ فإن يوم القيامة متسع الزمان، ففيه مواطن لا يسأل أهل الذنوب عن ذنوبهم، وفيه مواطن يسألون فيها سؤالا تقرير وتوبيخ، وجملة فبأي آلاء ربكما تكذبان تكرير للتقرير والتوبيخ.[80]

قال صاحب المحاسن: ففي السؤال مجاز عن نفي سماع الاعتذار. فهو من باب نفي السبب لانتفاء المسبب. وأخذ كثير السؤال على حقيقته، وحاولوا الجمع بينه وبين ما قد ينافيه.[81]

وفي هذه الآية الكريمة: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ }[82] "سجع"[83], كما أشار إليه الشوكاني بقوله: وقال الفراء: إنما هي جنة واحدة والتثنية لأجل موافقة رؤوس الآي[84] السجع المرصَّع غير المتكلف كأنه حبات درمنظومة في سلكٍ واحد كما هو واضح في السورة.

وفي قوله تعالى: {فيهما فاكهة ونخل ورمان}[85] "فن الاختصاص", كما قال الشوكاني: والنخل والرمان وإن كانا من الفاكهة لكنهما خصصا بالذكر لمزيد حسنهما وكثرة نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه كما حكاه الزجاج والأزهري وغير هما. وقيل: إنما خصهما لكثرتهما في أرض العرب، وقيل: خصهما لأن النخل فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء.[86] ذكر الشوكاني وجوها لتخصيصهما بالذكر.

وفي قوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ}[87] "فن الاتساع", أو الإيجاز بالحذف, كما أشار إليه الشوكاني بقوله: يخرج منهما وإنما يخرج ذلك من المالح لا من العذب، لأنه إذا خرج من أحد هما فقد خرج منهما، كذا قال الزجاج وغيره. وقال أبو علي الفارسي: هو من باب حذف المضاف، أي: من أحدهما.[88]

وأشار إلى فن الاتساع صاحب نظم الدرر: قال الرازي: فيكون العذب العذب كاللقاح للملح، وقال أبو حيان: قال الجمهور: إنما يخرج من الأجاج في المواضع التي يقع فيها الأنهار والمياه العذبة فناسب إسناد

ذلك إليهما، وهذا مشهور عند الغواصين، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة مولاه رضي الله عنه: تكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر لأن الصدف وغيرها تفتح أفواهها للمطر – انتهى.

فتكون الأصداف كالأرحام للنطف وماء البحر كالجسد الغاذي، والدليل على أنه من ماء المطر كما قال الأستاذ حمزة الكرماني: إن من المشهور أن السنة إذا أجدبت هزلت الحيتان، وقلت الأصداف والجواهر – انتهى. ثم لا شك في أنهما وإن كانا بحرين فقد جمعها وصف واحد بكونهما ماء، فيسوغ إسناد الخروج إليهما كما يسند خروج الإنسان إلى جميع البلد، وإنما خرج من دار منها كما نسب الرسل إلى الجن والإنس بجمعهما في خطاب واحد فقال: {رسل منكم} [سورة الأنعام: 130] وكذا {وجعل القمر فيهن نوراً} [سورة نوح: 16] ومثله كثير {اللؤلؤ} وهو الدر الذي هو في غاية البياض والإشراق والصفاء {والمرجان *} أي القضبان الحمر التي هي في غاية الحمرة، فسبحان من غاير بينهما في اللون والمنافع والكون – نقل هذا القول ابن عطية عن ابن مسعود رضي الله عنه، وقال: وهذا هو المشهور الاستعمال – انتهى، وقال جمع كثير: إن اللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره.[89]

وقال البيضاوي: كبار الدر وصغاره، وقيل المرجان الخرز الأحمر، وإن صح أن الدر يخرج من الملح فعلى الأول إنما قال منهما لأنه مخرج من مجتمع الملح والعذب، أو لأنهما لما اجتمعا صارا كالشيء الواحد فكأن المخرج من أحدهما كالمخرج منهما.[90]

وأشار إلى هذا صاحب إعراب القرآن: في قوله " يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان " فن الاتساع، فقد أسند الخروج إلى اللؤلؤ والمرجان لأنه إذا أخرج ذلك فقد خرج وقال يخرج منهما ولم يقل من أحدهما لأنهما لما التقيا وصارا كالشيء الواحد ساغ أن يقول منهما وقد تقدم القول في مثله وهو قوله " لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " وإنما أريد إحدى القريتين وكما تقول فلان من أهل ديار الشام وإنما بلده واحد منها.[91]

وفي قوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ}[92] وقال مقاتل والسدي ومجاهد: اللؤلؤ صغاره، والمرجان كباره، وقال: يخرج منهما وإنما يخرج ذلك من المالح لا من العذب، لأنه إذا خرج من أحد هما فقد خرج منهما، كذا قال الزجاج وغيره. وقال أبو علي الفارسي: هو من باب حذف المضاف، أي: من أحدهما، كقوله: على رجل من القريتين عظيم .[93]

لا حظ أن الشوكاني وضح أن هذا الكلام مصدر بحذف المضاف.

وأيد هذا المعنى صاحب حدائق الروح والريحان في تفسيره بقوله: وفي "بحر العلوم": أن اللؤلؤ يخرج من بحر فارس، والمرجان يخرج من بحر الروم. يعني: لا من كليهما. وقال أبو علي الفارسي: الكلام على حذف مضاف؛ أي: يخرجان من أحدهما، وهو المالح. لأنه إذا خرج من أحدهما .. فقد خرج منهما. كما يقال:

يخرج الولد من الذكر والأنثى، وإنما تلده الأنثى. وقيل: يخرج؛ أي: يحدث، ويتكون من التقائهما واجتماعهما اللؤلؤ والمرجان كما قال الرازي: يكون العذب كاللقاح للملح.[94]

وفي قوله تعالى: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطرف}[95] "الإيجاز بالحذف" كما قال الشوكاني: ومعنى قاصرات الطرف أنهن يقصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم.[96] فحذف الموصوف أي نساءٌ قاصرات الأبصار على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم.

وقال صاحب إعراب القرآن في هذه الآية فن الإرداف كما وضحه بقوله: في قوله " فيهنّ قاصرات الطرف " فن الإرداف وهو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبّر عنه بلفظه الموضوع له بل بلفظ هو ردف المعنى الخاص وتابعه قريب من لفظ المعنى الخاص قرب الرديف من الردف، والمعنى في الآية– كما قلنا– فيهنّ عفيفات قد قصرت عفّتهنّ طرفهن على بعولتهنّ، وعدل عن المعنى الخاص إلى لفظ الإرداف لأن كلّ من عفّ غضّ الطرف عن الطموح، فقد يمتد نظر الإنسان إلى شيء وتشتهيه نفسه ويعفّ عنه مع القدرة عليه لأمر آخر، وقصر طرف المرأة على بعلها أو قصر طرفها حياء وخفرا أو قصر عيني من ينظر إليهنّ عن النظر إلى غيرهنّ أمر زائد على العفّة لأن من لا يطمح طرفها لغير بعلها أو لا يطمح حياء وخفرا فإنها ضرورة تكون عفيفة، فكل قاصرة الطرف عفيفة وليست كل عفيفة قاصرة الطرف فلذلك عدل عن اللفظ الخاص إلى لفظ الإرداف.[97]

وهكذا قدصرح صاحب التحرير والتنوير بالحذف والإيصال: وقاصرات الطرف: صفة لموصوف محذوف تقديره نساء، وشاع المدح بهذا الوصف في الكلام حتى نزل منزلة الاسم ف قاصرات الطرف نساء في نظرهن مثل القصور والغض خلقة فيهن، وهذا نظير ما يقول الشعراء من المولدين مراض العيون، أي: مثل المراض خلقة. والقصور: مثل الغض من صفات عيون المها والظباء، قال كعب بن زهير[98]:

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول

أي: كغضيض الطرف وهو الظبي.

والطمث بفتح الطاء وسكون الميم مسيس الأنثى البكر، أي من أبكار. وعبر عن البكارة ب لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان إطنابا في التحسين، وقد جاء في الآية الأخرى " فجعلناهن أبكارا "[99] . وهؤلاء هن نساء الجنة لا أزواج المؤمنين اللائي كن لهم في الدنيا لأنهن قد يكن طمثهم أزواج فإن الزوجة في الجنة تكون لآخر من تزوجها في الدنيا. [100]

وقد يؤيد الإيجاز بالحذف في الآية من كلام صاحب نظم الدرر كما قال: أي نساء مخدرات هن في وجوب الستر بحيث يظن من ذكرهن بغير الوصف من غير تصريح، قد قصرن طرفهن وهممهن على أزواجهن ولهن

من الجمال ما قصرن به أزواجهن عن الالتفات إلى غيرهن لفتور الطرف وسحره وشدة أخذه للقلوب جزاء لهم على قصر هممهم في الدنيا على ربهم.[101]

وفي قوله تعالى :{وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ}[102] "استعارة تصريحية تبعية" , كما قال الشوكاني: والمراد بسجودهما انقياد هما لله تعالى انقياد الساجدين من المكلفين.[103]

شبه جريهما على مقتضى طبيعتهما بانقياد الساجدين لخالقهم, ثم استعمل اسم المشبه به في المشبه.

وقد صرح صاحب محاسن التأويل باستعارة التصريحية في هذه الآية الكريمة كما قال: " يَسْجُدانِ " أي ينقادان لله فيما يريد بهما طبعا، انقياد الساجد من المكلفين طوعا. فهو استعارة مصرّحة تبعيّة. شبّه جريهما على مقتضى طبيعته، بانقياد الساجد لخالقه والجملة- إن كانت خبرا عن الرحمن لعطفها على الخبر- فالرابط محذوف لوضوحه، أي بحسبانه ويسجدان له.[104]

وقال صاحب الروح والريحان: وذكر سبحانه هنا في مقابلة النعمتين السماويتين اللتين هما الشمس والقمر نعمتين أرضيتين، وهما: النجم والشجر، وكلاهما من قبيل النبات الذي هو أصل الرزق من الحبوب، والثمار، والحشيش للدواب. وإخلاء الجمل الأولى عن العطف لورودها على منهاج التعداد تنبيها على تقاعده في الشكر، كما في قولك: زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل، كثرك بعد قلة، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد. وأما عطف جملة " والنجم " على ما قبلها فلتناسبها من حيث التقابل لما أن الشمس والقمر علويان، والنجم والشجر سفليان، ومن حيث إن كلا من حال العلويين وحال السفليين من باب الانقياد لأمر الله تعالى. ولما كانت هذه الأربعة مغايرة لجنس الإنسان في ذاته وصفاته غير النظم بإيرادها في صورة الاسمية تحقيقا للتغاير بينهما وضعا، وطبعا، وصورة، ومعنى.

والمعنى : أي والزرع والشجر ينقادان لله سبحانه فيما أراد بهما طبعا كما ينقاد المكلف اختيارا. فما اختلاف ثمرها في الشكل، والهيئة، واللون، والمقدار، والطعم، والرائحة إلا انقياد للقدرة التي أرادت ذلك. وقال الفراء: المراد بسجودهما: أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت، ثم يميلان معها حين ينكسر الفيء. وقال الزجاج: سجودهما دوران الظل معهما، كما في قوله تعالى: " يتفيأ ظلاله ". وقال الحسن، ومجاهد: المراد بـ" النجم ": نجم السماء، وسجوده طلوعه. ورجح ابن جرير هذا.

وقيل: سجوده أفوله، وسجود الشجر تمكينها من الاجتناء لثمارها، وهذه الجملة والتي قبلها خبران آخران لـ " الرحمن "، وترك الرابط فيهما لظهوره، كأنه قيل: الشمس والقمر بحسبانه، والنجم والشجر يسجدان له. ولما ذكر ما به حياة الأرواح من تعليم القرآن .. ذكر ما به حياة الأشباح من النبات الذي له ساق. وكان تقديم النجم، وهو ما لا ساق له؛ لأنه أصل القوت، والذي له ساق ثمره يتفكه به غالبا.[105]

وصرّح صاحب التحرير بأن في هذه الآية الكريمة الاستعارة مكنية بقوله: وسجود نجم الأرضِ التصاقه بِالتّراب كالسّاجد، وسجود الشّجرِ تطَأطُؤُه بِهبوبِ الرّياحِ ودنوّ أغصانِه للجّانِينَ لثماره وَالْخابطين لورقِه، ففعل يسجدان مستعمل فِي معنَيِيْن مَجازِيّين وَهما الدّنوّ للمتناولِ والدّلَالَة على عظَمة اللَّه تعالى بِأن شبّه ارْتسام ظلالِهما على الأرضِ بالسّجود لِيكون السجود مشَبَّها بسقوطِ الإِنْسان على الأَرْض بوجهه ففيه استعارة مكنِيّة، وفعل يسجدان هنا مستعملا في مجازِه، وذلك يفيد أنّ اللَّه خلق في الموجودات دلالات عدّة على أنّ اللَّه موجدها ومسخّرها، ففِي جميعِها دلالات عقليّة، وفي بعضها أو معظمها دلالَات أُخرى رمزِيّة وخياليّة لِتفِد منها العقول المتَفاوِتة في الاستِدلَال.[106]

وفي قوله تعالى: {الشمس والقمر بحسبان} قال: بحساب ومنازل يرسلان. [107]

أشار الشوكاني إلى أن الفعل في الكلام مقدر أي: الشمس والقمر يجريان بحساب معلوم ومقدر. وأيد المفسرون هذا المعنى منهم صاحب حدائق الروح والريحان قال: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ مبتدأ وخبر والحسبان بالضم مصدر بمعنى الحساب كالغفران والرجحان يقال حسبه عده وبابه نصر حسابا بالكسر وحسبانا بالضم واما الحسبان بالكسر فبمعنى الظن من حسب بالكسر بمعنى ظن والمعنى يجريان بحساب مقدر في بروجهما ومنازلهما بحيث ينتظم بذلك امور الكائنات السفلية ويختلف الفصول والأوقات ويعلم السنون والحساب.[108]

وفي قوله تعالى :{كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ}[109] "فن الافتنان"[110] لأن الله تعالى قد جمع بين التعزية والفخر، في هذه الآية ,[111]

إذ عزى جميع المخلوقات، وتمدح بالانفراد بالبقاء بعد فناء الموجودات، مع وصفه ذاته بعد انفراده بالبقاء بالجلال والإكرام.

وقد بهذا صاحب إعراب القرآن وبيانه: وفي قوله «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» فن طريف وهو فن الافتنان، وحدّه أن يفتن المتكلم فيأتي في كلامه بفنين إما متضادين أو مختلفين أو متفقين، وقد جمع سبحانه بين التعزية والفخر إذ عزى جميع المخلوقات وتمدح بالانفراد بالبقاء بعد فناء الموجودات مع وصفه ذاته بعد انفراده بالبقاء بالجلال والإكرام، ومن أمثلته في الشعر الجمع بين الغزل والحماسة، والغزل لين ورقّة والحماسة شدّة وقوة، كقول أبي دلف أو عبد الله بن طاهر على اختلاف بين المؤرخين:

أحبك يا ظلوم وأنت عندي ... مكان الروح من جسد الجبان

ولو أني أقول مكان روحي ... خشيت عليك بادرة الطعان

فقد جمع بين الغزل والحماسة بأرشق عبارة وأبلغ إشارة، وقد بلغ عنترة فيه الذروة حين قال:

إن تغدفي دوني القناع فإنني ... طب يأخذ الفارس المستلئم

فقد وصف عبلة بستر وجهها دونه بالقناع حتى صار ما بين بصره ووجهها كالليل المغدف الذي يحول بين الأبصار والمبصرات، ثم قال:

إنني طب بأخذ الفارس المستلئم، أي إن تتبرقعي دوني فإني خبير لدريتي بالحرب بأخذ الفارس الذي سترته لأمته وحالت دوني ودون مقابلته، فأبرز الجدّ في صورة الهزل وجاء في بيته مع الافتنان التنذير الطريف، والتعبير عن المعنى باللفظ الشريف.[112]

في قوله تعالى: {ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ}[113] مجاز مرسل، كما قال الشوكاني: الوجه عبارة عن ذاته سبحانه ووجوده ذاته المقدسة وهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل.[114]

وقال السيد الآلوسي في هذه الآية :أي ذاته عز وجل، والمراد هو سبحانه وتعالى، فالإضافة بيانية، وحقيقة الوجه في الشاهد الجارحة، واستعماله في الذات مجاز مرسل، كاستعمال الأيدي في الأنفس.[115]

وقال صاحب روح البيان: " وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ " اى ذاته ومنه كرم الله وجهه اى ذاته فالوجه العضو المعروف استعير للذات لانه أشرف الأعضاء ومجمع المشاعر وموضع السجود ومظهر آثار الخشوع قال القاضي ولو استقريت جهات الموجودات وتفحصت وجوهها وجدتها بأسرها فانية في حد ذاتها الا وجه الله الذي يلى جهته انتهى.[116]

في هذه الآية الكريمة ذكر الوجه وإرادة الذات مجاز مرسل من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، فالإضافة بيانية، وحقيقة الوجه في الشاهد الجارحة، واستعماله في الذات مجاز مرسل، كاستعمال الأيدي في الأنفس، وعلاقته البعضية.

وفي قوله تعالى:{والشمس والقمر بحسبان* والنجم والشجر يسجدان}[117] فن التوهيم، وهو عبارة عن إتيان المتكلم بكلمة يوهم باقي الكلام قبلها أو بعدها أن المتكلم أراد اشتراك لغتها بأخرى أو أراد تصحيفها أو تحريفها أو اختلاف إعرابها أو اختلاف معناها أو وجها من وجوه الاختلاف والأمر بضد ذلك[118] فإن ذكر الشمس والقمر، هنا، يوهم السامع أن المراد بالنجم أحد النجوم، والمراد به النبت الذي لا ساق له.

وقال صاحب إعراب القرآن وبيانه: وفي قوله «والشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان» فن التوهيم وقد تقدمت الإشارة إليه وأنه عبارة عن إتيان المتكلم بكلمة يوهم باقي الكلام قبلها أو بعدها أن المتكلم أراد اشتراك لغتها بأخرى أو أراد تصحيفها أو تحريفها أو اختلاف إعرابها أو اختلاف معناها أو وجها من وجوه الاختلاف والأمر بضد ذلك، فإن ذكر الشمس والقمر يوهم السامع أن النجم أحد نجوم السماء وإنما المراد النبت الذي لا ساق له ومنه قول أبي تمام[119]:

من كل أبيض يجلو منه سائله ... خدا أسيلا به خد من الأسل

فإن ذكر الخد الأسيل أي الناعم المشرق يوهم أن المراد بخد من الأسل أي الرماح مثله مع أن المراد الجرح ومنه توهيم التصحيف ومثاله قول أبي الطيب[120]:

وإن الفئام التي حوله ... لتحسد أرجلها الأرؤس

فإن لفظة الأرجل أوهمت السامع أن المتنبي أراد القيام ومراده الفئام بالفاء الموحدة وهي الجماعات لأن القيام يصدق على أقل الجمع فتفوت المبالغة منه.[121]

الهوامش

[1] سورة الرحمن 3

[2] وقيل: هو خطاب لواحد على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل وتكريره. قال الخليل والأخفش: هذا كلام العرب الصحيح أن يخاطب الواحد بلفظ الاثنين(فتح القدير91/5)

[3] سورة ق 24

[4] التكرير: وهو أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة لتأكيد الوصف أو المدح أو الذم أو التهويل أو الوعيد،(الإيضاح321)

[5] فتح القدير160/3

[6] سورة الرحمن: 3

[7] سورة الرحمن: 8

[8] سورة ق: 24

[9] محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير243/27، «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984 هـ

[10] حمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حَيَّان الغرناطي الأندلسي الجياني،(654 - 745 هـ) النِّفْزي، أثير الدين، أبو حيان: من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات. ولد في إحدى جهات غرناطة، ورحل إلى مالقة. وتنقل إلى أن أقام بالقاهرة. وتوفي فيها، بعد أن كف بصره, واشتهرت تصانيفه في حياته وقرئت عليه. من كتبه البحر المحيط في تفسير القرآن، و طبقات نحاة الأندلس و زهو الملك في نحو الترك و الإدراك للسان الأتراك, (الزركلي, خير الدين بن محمود بن محمد بن علي، الأعلام152/7, دار العلم للملايين, 2002 م , وشذرات الذهب 6: 145)

[11] أبو حيان, محمد بن يوسف بن علي بن يوسف, البحر المحيط في التفسير59/10, تحقيق: صدقي محمد جميل, دار الفكر – بيروت, 1420 هـ

[12] هي التشبيه بين شيئين فأكثر، وبين ما يخالف وما يوافق. ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله خزانة الأدب وغاية الأرب, تحقيق: عصام شقيو, دار البحار, بيروت, 2004م

[13] سورة الرحمن: 7 , 10, 14, 15.

[14] الشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن270/28، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت – لبنان، ط، 1، 1421 هـ - 2001 م

[15] سورة الرحمن31.

[16] فتح القدير164/5.

[17] سورة الرحمن 13.

[18] فتح القدير5/ 164.

[19] البحر المحيط63/10.

[20] البيضاوي , أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد , أنوار التنزيل وأسرار التأويل173/5, تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي, دار إحياء التراث العربي – بيروت,ط, 1, 1418 هـ

[21] سورة الرحمن31.

[22] فتح القدير164/5.

[23] سورة ق: 24

[24] سورة الرحمن14.

[25] التحرير والتنوير245/27.

[26] حدائق الروح والريحان 277/28

[27] سورة الرحمن15.

[28] فتح القدير 161/5.

[29] سورة الرحمن14_15.

[30] سورة الرحمن17-19

[31] فتح القدير161/5.

[32] حدائق الروح والريحان279/28.

[33] سورة الرحمن29.

[34] فتح القدير165/5.

[35] حدائق الروح والريحان287/28.

[36] التحرير والتنوير255/27.

[37] سورة الرحمن41.

[38] فتح القدير166/5.

[39] التحرير والتنوير 27 /262.

[40] سورة الرحمن43.

[41] فتح القدير166/5.

[42] حدائق الروح والرحيان296/28.

[43] سورة الرحمن46-48.

[44] فتح القدير168/5.

[45] سورة الرحمن26.

[46] وهو ترجيح أحد المتصاحبين أو المتشابهين على الآخر في اطلاق لفظه عليه وبجعله موافقا له في الهيئة أو المادة وفائده . (أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي, جواهر البلاغة 214/1, ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي, المكتبة العصرية، بيروت)

[47] فتح القدير165/5

[48] إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي , المولى أبو الفداء (المتوفى: 1127هـ)، روح البيان298/9، دار الفكر – بيروت.

[49] التحرير والتنوير253/27.

[50] سورة الرحمن 33

[51] هو طلب الفعل على سبيل إظهارعجز المخاطب بتنفيذه لأنه فوق إرادته, وأعلى من مقدوره.(المنهاج الواضح للبلاغة90/2, حامد عوني, المكتبة الأزهرية للتراث)

[52] فتح القدير 165/5

[53] سورة العنكبوت: 22.

[54] محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: 1332هـ)، محاسن التأويل108/9، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميه – بيروت، ط، 1 – 1418 هـ

[55] سورة الرحمن37.

[56] فتح القدير165/5.

[57] سورة المعارج: 8

[58] اللباب في علوم الكتاب335/18.

[59] هو ما ذكر فيه الطرفان فقط وحذف منه الوجه والأداة (علوم البلاغة213/1).

[60] وهو ما كان وَجه الشبه فيه وصفاً منتزعاً من متعدد, حسيا كان أو غير حسي, (جواهر البلاغة 234/1).

[61] محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى : 1403هـ)، إعراب القرآن وبيانه412/9، دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، دار اليمامة – دمشق – بيروت، دار ابن كثير – دمشق – بيروت، ط، 4، 1415 هـ

[62] سورة الرحمن 58.

[63] فتح القدير 170/5

[64] البحر المحيط69/10

[65] إعراب القرآن وبيانه417/9.

[66] وبنو الحسحاس حي من الخزرج ,وهم ولد الحسحاس بن مالك بن عدي بن النجار.الأعلام للزركلي263/5، والحسحاس مشتقٌّ من قولهم:حَسْحَسْتُ اللَّحمَ على النار.والحَسْحاس:السيف المِبِيْرُ.والرجل الجَواد. القاموس المحيط693/1, وتاج العروس539/15, ولسان العرب49/6.

[67] التحرير والتنوير270/27.

[68] سورة الرحمن 24

[69] فتح القدير162/5

[70] القرطبي , أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر, الجامع لأحكام القرآن 164/17, تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش, دار الكتب المصرية , القاهرة, ط, 2، 1384هـ

[71] روح البيان 297/9.

[72] علي بن العباس بن جريج، أو جورجيس، الرومي، أبو الحسن: (221 – 283 هـ = 836 – 896 م)، شاعر كبير، من طبقة بشار والمتنبي، رومي الأصل، كان جده من موالي بني العباس، ولد ونشي ببغداد، ومات فيها مسموما، له " ديوان شعر – خ " في ثلاثة أجزاء، وديوان ابن الرومي – ط " (الأعلام للزركلي297/4).

[73] إعراب القرآن وبيانه404/9.

[74] أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: 373هـ) بحر العلوم382/3.

[75] سورة الرحمن54.

[76] وهو أن يجتمع اللفظان في أصل الاشتقاق فتجانس اللفظين يقتضي التجانس وعدم التفات في المعنى يقتضي عدم التجانس بينهما.(جواهر البلاغة 326/1)

[77] فتح القدير169/5

[78] سورة الرحمن39

[79] فتح القدير166/5.

[80] التحرير والتنوير262/27.

[81] محاسن التأويل111/9.

[82] سورة الرحمن 46

[83] اتفاق الفواصل فى الكلام المنثور فى الحرف أو فى الوزن أو فى مجموعهما.(يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز12/3, المكتبة العنصرية – بيروت, ط, 1, 1423 هـ, وجواهر البلاغة330/1)

[84] فتح القدير 167/5

[85] سورة الرحمن 68.

[86] فتح القدير 171/5.

[87] سورة الرحمن22.

[88] فتح القدير 161/5.

[89] نظم الدرر162/19.

[90] ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: 685هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل172/5، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط، 1، - 1418 هـ

[91] إعراب القرآن وبيانه404/9.

[92] سورة الرحمن22.

[93] فتح القدير161/5.

[94] حدائق الروح والريحان282/28.

[95] سورة الرحمن56.

[96] فتح القدير170/5

[97] إعراب القرآن وبيانه416/9.

[98] كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني، أبو المضرّب: (000 - 26 هـ = 000 - 645 م) شاعر عالي الطبقة، من أهل نجد، له " ديوان شعر - ط "كان ممن اشتهر في الجاهلية. ولما ظهر الإسلام هجا النبي صلى الله عليه وسلّم وأقام يشبّب بنساء المسلمين، فهدر النبيّ دمه، فجاءه "كعب " مستأمنا، وقد أسلم، وأنشده لاميته المشهورة التي مطلعها: " بانت سعاد فقلبي اليوم متبول " فعفا عنه النبي صلّى الله عليه وآله وخلع عليه بردته. وهو عن أعرق الناس في الشعر: أبوه زهير بن أبي سلمى، وأخوه بجير، وابنه عقبة وحفيده العوّام، كلهم شعراء. وللإمام أبي سعيد السكري " شرح ديوان كعب ابن زهير - ط " ولفؤاد البستاني "كعب ابن زهير - ط " .(الأعلام للزركلي5 /226)

[99] سورة الواقعة: 36

[100] التحرير والتنوير270/27.

[101] نظم الدرر184/19.

[102] سورة الرحمن 6.

[103] فتح القدير 159/5.

[104] محاسن التاويل101/9.

[105] الشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن270/28، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت – لبنان، ط، 1، 1421 هـ - 2001 م

[106] محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ)، التحرير والتنوير 257/27. «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»]، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984 هـ

[107] فتح القدير163/5.

[108] حدائق الروح والريحان289/9.

[109] سورة الرحمن: 27.

[110] وهو أن يفتن المتكلم فيأتي بفنين متضادين أو متفقين، في كلامه في جملة واحدة أو بيت واحد مثل الهجاء والهناء, والتشبيب والحماسة والعزاء.(جواهر البلاغة302/1)

[111] خزانة الأدب وغاية الأرب138/1.

[112] إعراب القرآن وبيانه405/9.

[113] سورة الرحمن 27.

[114] فتح القدير170/5

[115] الألوسي, شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني,روح المعاني, تحقيق: علي عبد الباري عطية, دار الكتب العلمية , بيروت، ط,1, 1415 هـ

[116] روح البيان298/9.

[117] سورة الرحمن5-6.

[118] خزانة الأدب وغاية الأرب340/2.

[119] حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، (188 - 231 هـ = 804 - 846 م) الشاعر، الأديب. أحد أمراء البيان. ولد في جاسم , ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه وقدمه على شعراء وقته , وله تصانيف منها: ديوان الحماسة و مختار أشعار القبائل وهو أصغر من ديوان الحماسة، و نقائض جرير والأخطل, وفيات الأعيان11/2

[120] أحمد بن الحسين بن مرة بن الحسن بن عبد الصمد (303 - 354 هـ = 915 - 965 م) الكندي الجعفي الكوفي المعروف بالمتنبي الشاعر المشهور، وفيات الأعيان120/1.

[121] إعراب القرآن وبيانه400/9.